الباب الثانى

أغراض التربية وأهدافها

يمر الطفل — منذ ولادته إلى أن يصل إلى مرحلة الرجولة ، أو النضج التكوينى — بأطوار مختلفة ، هى فى الواقع أطوار إعداده . وكل جيل من الكبار يتعهده بما ركب فيه من غرائز المحافظة على البقاء : بقاء الفرد ، وبقاء الجنس — يتعهد أطفاله بالتربية ، ليحقق غاية من الغايات ، أو عدداً منها . ولكن . . . من الذى يحدد هذه الغايات ؟ أهم الآباء ؟ أم الحكومات ؟ أم المصلحون الاجتماعيون والفلاسفة ؟ أم رجال الدين ؟ ، وما العوامل التى تؤثر فى هذه الغايات أو الأهداف ، وتغيرها ؟

لا شك فى أن التربية بدأت بظهور الإنسان ، وشعوره بكيانه ، باعتباره فرداً فى مجتمع ، كالأسرة أو القبيلة مثلا . وكانت غايتها أن يعلم الكبار الصغار سبل العيش والسلوك فى حياتهم البدائية . ونستطيع أن نفترض عهداً سبق إنشاء المدرسة ، باعتبارها عاملاً مقصوداً من عوامل التربية ، كان فيه الأطفال يتعلمون — أو يربون — بطريق التقليد والمشاركة العملية فيما يقوم به الكبار من أعمال ؛ لسد حاجاتهم فى الحياة . فكانت البنت تساعد أمها ، وبهذه الطريقة تعلمت ما كانت تعمله ، وبهذه الطريقة العرضية عرفت شئون المنزل الضرورية للحياة البدائية . أما الصبى فقد كان يلاحظ ما يقوم به الكبار ؛ من الصيد فى الغابة ، أو صيد السمك ، ومن محاربة العدو . وتعلم بهذه الصورة أساليب الحياة عندهم . وكان يشاهد الطقوس القبلية ، حتى إذا جاء الوقت المناسب أشركه الكبار معهم فى تأدية هذه الطقوس . وكان عند ما يقدم الصبى إلى الاشتراك فى الطقوس ، يقام حفل خاص احتفاء بهذا العمل . وبذلك يصبح الغلام عضواً فى هذه الطقوس القبلية . وصار الاحتفاء بالغلام فى هذه المناسبة مصحوباً ببعض التعاليم والتوجيهات ، التى تتصل بحياة القبيلة ، وعاداتها ، ونظامها ، وتفكيرها .

وكان يروى للغلام فى مثل هذه الحفلات بعض الأساطير والتقاليد الخرافية . ومن هنا تبدأ نواة ما نسميه الآن بالمدرسة (١) .

وهنا نقف لنتفهم الغرض من هذه التربية البدائية :

إن القبيلة — أو الأسرة — لم يكن لها غرض تربوى واضح محدد ، مصحوب بوعى منها ، وشعور خاص ، وإنما كانت تربى الطفل بدافع تلقائى طبيعى ليأخذ عنها أساليب الحياة العملية ، ويتشرب تقاليدها ، ونظرتها للحياة . حتى يصير عضواً فيها ، كما صاروا هم . فلم تكن للتربية إذاً فلسفة مثالية وراء الغرض العملى المباشر ، ولكنها كانت تربية عملية ، تعد الطفل للحياة العملية ، فهى إعداد للحياة ، وحياة معاً . وهى عملية تتضمن الهدف فى خلالها

This education was not only close to life — it was in very fact part and parcel of living.

والواقع أن الناس كانوا يتلقون نصيبهم من التربية ، قبل أن تعرف المدارس بمعناها الحديث . والتاريخ يشهد بأن أشعار "هومير" ألفت ، ونقلت من جيل إلى جيل ، ومن جماعة إلى جماعة ؛ قبل أن تسجل ، ويتعلمها النشء فى المدارس .

فهل نقول : إن هذه الثقافة الأدبية ، التى تأثر بها الإغريق فى قديم العصور ، لا تدخل ضمن عوامل التربية ؟ وهل نقول : إن هذه التربية غير المدرسية ، كانت خلواً من غرض وهدف؟ . لقد كان العرب فى جاهليتهم لا يعرفون المدارس ومع هذا فقد كانت لهم ثقافتهم ، وعلومهم ، وحضارتهم ، وآدابهم ، التى وصلت إلينا . فهل يقال : إن التربية لم تعرف عند عرب الجاهلية ؛ لعدم ظهور المدارس عندهم ؟ أو نقول : إن التربية قد وجدت ، وإن القوم كانوا يربون أبناءهم ، وكان الكبار منهم — حين يربون الصغار — يرمون إلى هدف : قد يكون واضحاً فى أذهانهم ، وقد يكون غير واضح ، وقد يكون هدفاً يحقق المثل الأعلى للقبيلة أو الجماعة التى ينتمى إليها الفرد ، أو يحقق المثل الأعلى عند الوالدين فقط ؟ كلاهما ممكن ! ! وما يجب أن نستنبطه هو أن التربية وجدت بوجود الإنسان ، وأنها كانت ذات هدف ، وأن هذا الهدف . أو هذه الأهداف

---

(١) انظر ص ٥٣ ٥٤ من كتاب

"Education For changing civilization, by W.H. Kilpatrick."

كان خاضعاً — من حيث إمكان تحقيقه ، واتخاذ الوسائل له — لعوامل مختلفة ؛ طبيعية ، واجتماعية . وأن هذا الهدف قد تغير من مكان إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان ؛ وفقا لهذه العوامل . نعم هو كذلك وها نحن أولاء نذكر هذه العوامل :

العوامل التى تؤثر فى نوع التربية وأغراضها

ذكرنا أن التربية قد ظهرت بظهور الإنسان وأنها كانت ملازمة له ، بحكم أنها كانت ضرورية لوجوده ، فى أى صورة من صور الإنسانية الراقية ، أو البدائية . وإذا نظرنا إلى أى جماعة — أو أمة — وجدنا أن تطور التربية فيها ، بوسائلها وأهدافها ، إنما هو مظهر من مظاهر التطور الاجتماعى لهذه الأمة . ونقصد بالتطور الاجتماعى كل ما يؤثر فى حياة المجتمع ، ونظام معيشته ، اقتصادياً كان ، أو سياسياً ، أو دينياً أو إدارياً . وعلى هذا يصح القول : إن من العوامل التى تؤثر فى أغراض التربية :

١ — التغير الاجتماعى :

والثابت أن التغير الاجتماعى فى أية أمة يكون نتيجة لأحد عاملين أولهما معاً : فالعامل الأول داخلى ، وهو ما يحدث فى الأمة من تطور تدريجى فى نظم الحكم ، والقوانين ، وعلاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض ، وعلاقة الفرد بالفرد ، وقواعد الأخلاق ، والمبادئ الاقتصادية والدينية إلخ . وقد يكون هذا التطور فجائيا ؛ نتيجة لظهور مصلح عظيم يثور على القائم من التقاليد والنظم ، ويحدث **تغييرات جوهرية كما حدث بظهور الإسلام وانتشاره فى العالم ، وكما حدث فى مصر الحديثة نتيجة لثورة يوليو ١٩٥٢ مما أحدث انقلاباً جوهرياً فى حياة الأمم التى ذاع الإسلام فيها وفى حياة الأمة المصرية.**

ونتيجة هذا الانقلاب تغير فى أهداف التربية ، يظهر لمن يدرس تاريخ الأمتين. وكما حدث فى روسيا بظهور النظام البلشفى ، والقضاء على ما سبقه من نظام . وكما حدث أيضاً فى ألمانيا النازية ، وإيطاليا الفاشية . ومن يدرس الحياة العلمية والثقافية لهذه الأمم الثلاث ؛ سواء ما كان يدرس فى المدارس ، وما كان يشيع بين الجمهور خارج المدارس — يجد أن لها طابعاً خاصاً ، هو صورة لهذا التغير

الاجتماعى السياسى . ومعنى هذا أن تربية النشء وفقاً لهذه النظم الاجتماعية السياسية الجديدة ترمى إلى تكوينه ، ليعيش فى نظام اجتماعى خاص ، يخالف ما سبقه من نظم ، أى أن غرض التربية قد تأثر بما طرأ من تغير فى النظام الاجتماعى .

والعامل الثانى : خارجى : وهو ما يحدث فى الأمة من تغير اجتماعى ، نتيجة صلاتها بغيرها من الأمم الأخرى . فمصر قبل أن يدخلها الفرنسيون لم تكن تعرف الصحف ، ولا الأساليب الحديثة فى العلوم . ولو أقام بها الفرنسيون طويلا لأثروا فى صحافتها تأثيراً واضحاً ، ولأثروا — أيضاً — فى لون التربية عند المصريين ، وفى أهدافها . ولم لا ، وقد كان لصلة مصر بأوربا منذ أول القرن التاسع عشر الميلادى إلى الآن أثر قوى فى تغيير مناهج التعليم ، وطرق التدريس .

ومصر التى كانت — فى عهد الاحتلال — قوية الصلة بإنجلترا ، وبالثقافة الإنجليزية تأثرت فى نظمها الاجتماعية ، والتربوية خاصة ، بما نتج عن هذه الصلة .

ولما تخلصت مصر من نظام الملكية والإقطاع حدث بها تطور اجتماعى واضح فى اقتصادها ، وإدارتها وسياستها الخارجية ، وكان لهذا كله أثر فى تغير أغراض التربية .

وكان لظهور جامعة الدول العربية أثره فى أن اتجه رجال التربية فى الدول العربية إلى تقريب ثقافات هذه الدول ، وعقد المؤتمرات للتشاور فى المناهج والأهداف وجعل قدر منها مشتركاً بينها ، وتقريب ما لها من أهداف تربوية [١]

هذا ، ومن الواضح أن العاملين : الداخلى ، والخارجى ، كلاهما مؤثر فى الآخر متأثر به . نعم إن التربية المدرسية تؤثر فى تطور المجتمع ، وهى عامل مؤثر فى حياته ، غير أن التربية عادة تتكيف لتلبى حاجات المجتمع . ففى القرن التاسع عشر لما نشطت الصناعة والتجارة وقويت المنافسة بين الدول الأوربية الصناعية ، رأت الحكومات ضرورة إدخال العلوم الطبيعية فى المدارس وجعلها جزءاً من المنهج ، حتى يعرف المتعلم من مبادئها ما يمكنه من تطبيقها عند ما يبدأ حياته العملية فى المصنع أو المتجر .

ومن الملاحظ فى مصر ما نتج عن انتشار الطيران ، والسينما ، والصناعات

---

(١) كان أول مؤتمر ثقافى عقد بلبنان فى صيف سنة ١٩٤٧ ممثلا لجميع الأمم العربية الأعضاء فى الجامعة . وكان من أهدافه : التقريب بين مناهج الدراسة ، وتحديد قدر مشترك من المعارف ، فى الأدب والتاريخ ، والجغرافيا ، والتربية الوطنية — بين العرب .

المختلفة ، من ظهور مدارس جديدة فنية ، لإعداد رجال لهذا النوع الجديد من مظاهر الحياة الاقتصادية ، ومن إدخال دراسات ابتدائية لهذه الأضرب من الحضارة فى بعض معاهد التعليم غير الفنية .

٢ — سلطة الهيئات التى تشرف على التربية :

إن عوامل التربية المقصودة[١] — كالمدرسة ، والمعبد ، والأسرة — خاضعة لسلطة هيئات تنظمها وتشرف عليها ، كالحكومة ، ورجال الدين ، وكبار الأسرة . ولكل هيئة من هذه الهيئات نفوذها فى تكييف مناهج الدراسة ، وأساليبها ، وأهدافها .

فى الولايات المتحدة مثلا ، حيث اللامركزية التعليمية وحيث تنتخب مجالس للتعليم تشرف على إدارة المدارس — نجد التربية المدرسية تتكيف وفقاً لرغبات الشعب ، ممثلة فى الناخبين وأعضاء المجالس . أى أن أهداف التربية خاضعة لرأى الشعب الحر . بينما نجد فى بلاد أخرى أن سلطة الحكومة غير الديموقراطية هى التى تحدد الأهداف من التربية ، كما هى الحال فى الدول الديكتاتورية .

وكان التعليم الدينى فى المدارس الفرنسية قبل الثورة حتما فى كل المدارس ، فلما ألغى دين الدولة الرسمى ، لم يعد التعليم الدينى إجبارياً ، وصار هدف التربية الرسمى خالياً من العنصر الدينى ، اللهم إلا المدارس الطائفية كمدارس الجزويت مثلا .

وكان فى مصر — ولا يزال — نوعان من التربية : التربية الدينية ، والتربية المدنية ، ولكل منهما هدفه . ولا زلنا نشاهد الصراع بين هذين النوعين من التربية ، ومحاولة أحدهما الطغيان على الآخر ، ولو ضعف سلطان رجال الدين بمصر لتغير الهدف التربوى العام فى الدولة ، أو لقربت المسافة بين الهدفين .

٣ — الغايات التربوية المثلى قد لا تتحقق فى الواقع :

وليس من الضرورى أن نجد اتفاقاً فى الغاية الإنسانية المثلى فى التربية والغاية الواقعية فعلا ، تلك التى تضعها الحكومة ، أو أى هيئة أخرى من الهيئات المشرفة على التربية . فقد تحتاج الدولة إلى الجندى ، فتوجه التربية فى مدارسها إلى هدف

(١) سنشرح — فيما بعد — المراد بعبارة : التربية المقصودة ، راجع « الباب الثالث : عوامل التربية » .

عسكرى حربى ، وتهمل بعض النواحى الأخرى الخلقية مثلا . وقد تعنى الدولة بالإعداد المهنى فى الصناعة ، أو الزراعة ، أو التجارة ، وتهمل الناحية الثقافية عند الفرد ، أو الناحية الاجتماعية ؛ فيخرج الشاب إلى الحياة العملية أعزل من السلاح الضرورى لهما . وقد عنيت التربية الإسبرطية بتكوين الجندى القوى الماهر ، الصبور ، الجاف ، وأهملت التربية العقلية . وكانت ظروف إسبرطة تحتاج إلى هذا النوع من التربية .

ومعنى هذا أن الناحية التربوية القائمة بالفعل قد لا تكون هى التى تدعو إليها التربية المثالية فى هذه الدولة ؛ إما بسبب جهل الهيئة المهيمنة على التربية ، أو لسبب خاص تريده هذه الهيئة .

٤ — الإصلاح التربوى متأخر — غالباً — عن الاستعداد الاجتماعى :

والسبب فى هذا أن رجال الإصلاح الاجتماعى قد لا يكونون المشرفين على التربية : فلا يستطيعون إحداث الإصلاح التربوى الذى يريدونه ، أو قد يكونون منصرفين إلى الإصلاح الاجتماعى العملى ، فلا يجدون من جهودهم ووقتهم ، ما يمكنهم من تغيير المناهج ، وأساليب التعليم بالمعاهد . أو قد يجدون من المشرفين على التربية مقاومة لآرائهم الإصلاحية . مثال ذلك : ما نادى به قاسم أمين من وجوب تعليم المرأة . وتأخر التربية النسوية فى مصر فى عهده ، وما نادى به الشيخ محمد عبده من وجوب إصلاح التعليم الأزهرى ، ومقاومته فى ذلك الوقت ، وما ينادى به بعض المربين من ضرورة توحيد المرحلة الأولى من التعليم ، وعدم تحقيق هذا النداء حتى وقت قريب .

من أجل هذه العوامل السابقة نجد نوعين من أغراض التربية :

(ا) نوع قائم فعلا ، وهو الذى يعمل المجتمع وسلطات التعليم على تحقيقه.

(ب) ونوع مثالى ، وهو الذى ينادى به المصلحون فى كل عصر من العصور ولم يتحقق بعد .

تطور أغراض التربية

ا — أغراض التربية من الناحية العملية الواقعية

ذكرنا أن أغراض التربية فى أى جماعة ، إنما يمكن معرفتها من الحياة الاجتماعية لهذه الجماعة ، ومن العامل أو العنصر الذى له السلطان فى حياة هذه

الجماعة ، كالدولة أو رجال الدين ، أو الأسرة . وذكرنا ، أيضاً ، أن الغرض القائم فعلا ، قد يختلف عن الغرض المثالى الفلسفى ، فقد يظهر فى عهد من العهود مصلح اجتماعى ، أو فيلسوف له رأى فى التربية وأغراضها المثلى ، فيعلن هذا الرأى ، ويكون رأيه هذا نظريا ، ما لم يجد فى الحياة تطبيقاً عمليا .

والذى يدرس تاريخ العالم الثقافى والاجتماعى يجد أغراض التربية الواقعية ، قد اختلفت من مكان إلى مكان ، ومن عهد إلى عهد ، بل فى الجماعة الواحدة من طبقة إلى طبقة . وها هى ذى بعض الأمثلة :

فى الصين : إن غرض التربية القديمة عند الصينيين هو « إعداد القادة بتزويدهم بالمعارف القديمة التى تتصل بنظام المجتمع ، وصلات أفراده بعضهم ببعض ، وإعداد كل أفراد الشعب ليكون سلوكهم حسناً فى جميع أعمالهم وفى جميع ما يزاولونه فى حياتهم » . ومعنى هذا أن التربية عندهم كانت تعنى[1] بالناحية الخلقية الاجتماعية ، وفقاً لتقاليدهم القديمة التى احتوتها كتب الديانة الكنفوشية وكانت غاية التربية للقادة غيرها لجميع أفراد الشعب .

فى مصر : وكانت التربية فى مصر القديمة ، مقصورة على إعداد طبقة الأرستقراط من الكهنة ، وفيهم القضاة ، والأطباء ، والمهندسون ، والكتاب ، وجباة الضرائب والجنود . فكان غرضها إذن « دنيوياً دينياً . فالدنيوى تخريج المتعلمين فى الفنون المختلفة ، مما يضمن لهم المعيشة الراضية . والدينى هو العمل على محبة الآلهة فى الآخرة ؛ بالتعبد والتقرب إليهم » .

فى إسبرطة : وكانت التربية عند إسبرطة ، وفقاً على الأحرار[2] ، والغرض منها « إعداد الرجل قوى الجنان فى المعارك ، فصيح اللسان فى المجالس » . وكان هذا الغرض ضرورياً بحكم الحياة فى إسبرطة .

فى أثينا : أما فى أثينا فقد اختلفت الحياة الاجتماعية عنها فى إسبرطة ، فكان الغرض من التربية فيها «إعداد الفرد لذاته ؛ ليصل إلى درجة الكمال The excellence of man as a man. ويشمل هذا الغرض القدرة على ضبط النفس

---

(١) ص ١٧ من كتاب تاريخ التربية لمنرو .

(٢) ص ٨ الجزء ٧ من دائرة المعارف للمدرسين نشرها لورى .

والاعتدال فى السلوك ، واتزان القوى الجسمية والعقلية ، وانسجام الخلق وجماله ، قولا وعملا » . ويقول برتراند رسل : « إن التربية الصينية التقليدية[١] كانت كبيرة الشبه من بعض النواحى بنظيرتها فى أثينا فى أعز أيامها : كان الصبية الأثينيون يحملون على حفظ هومر عن ظهر قلب من أوله إلى آخره ، وكذلك كان الصبية الصينيون يحملون على حفظ المأثورات الكنفوشية . وكان الأثينيون يعلمون نوعاً من احترام الآلهة ، يقوم على المحافظة على المظاهر ، ولا يضع حاجزاً فى طريق النظر الفكرى الحر . وكذلك كان الصينيون يقيمون طقوساً خاصة ، تتصل بتقديس الأسلاف ، من غير أن يجبروا بحال على اعتقاد ما كان منطوياً فى تلك الطقوس .

الكنيسة الكاثوليكية : وكان الغرض العملى عند رجال الكنيسة الكاثوليكية ، فى القرون الوسطى ، هو « إماتة الشهوات ، وإهمال الجسم ، حتى تتنقى الروح ، وتنجو من عذاب جهنم ، ووسيلة ذلك : الطهارة والفقر والطاعة[٢] » .

وقد تكونت بأوربا فى القرون التى بين التاسع والسادس عشر الميلادى طبقة الفرسان . وكانت هى طبقة الأرستقراط ، ولها تربية خاصة[٣] ترمى إلى « تكوين الشجاعة والمغامرة ، تنفيذاً للقوانين ، وإلى تمجيد روح الحرية ، والعقيدة الصالحة والإيثار ، ورقة المعاملة ، ولا سيما مع السيدات » ، فهذا النوع من التربية خاص بطبقة بعينها ، كانت لها أغراض غير تلك التى سادت بين الجمهور .

فى الإسلام : وكانت أغراض التربية الإسلامية تتلخص فى الآية الكريمة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » فكانت إذن أغراضاً لإرضاء الله ، ولكسب العيش .

عند اليزويت : وكانت أغراض التربية عند اليزويت[٤] : « السمو بالروح عن طريق المعرفة الدينية ، ونشر العقيدة الكاثوليكية بين الناس ،

---

(١) ص٣٩ من كتاب On Education وص ٢٩ من ترجمة هذا الكتاب للكردانى والفمراوى.

(٢) الجزء السابع من دائرة المعارف للمدرسين ، نشرها « لورى » .

(٣) ص ٢٨٨ من كتاب تاريخ التربية لمنرو .

(٤) مؤسس هذا المذهب هو « إجنتيوس ليولا » أحد فرسان أسبانيا .

والرياضة الروحية ، وعمل الخير ، ولا سيما بتعليم الشبان والجهلاء الديانة المسيحية » .

وفى القرون : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ كان الغرض السائد المهم للتربية فى أوربا[١] :

"To develop the religious beliefs & practices and the ecclesiastical interests of the child, for upon these depended his eternal welfare".

وهكذا نجد أغراض التربية قد تغيرت من عصر إلى عصر ، ومن جماعة إلى جماعة ، بحسب العوامل المختلفة التى أشرنا إليها .

فى اليابان الحديثة : وفى اليابان الحديثة[٢] كان الغرض من التربية « تخريج موظفين مخلصين للدولة ، عن طريق تربية عواطفهم ، ونافعين لها عن طريق معارفهم التى تعلموها » . وكانت معاهدهم ومصانعهم ، ونظم الحياة عندهم ، ترمى إلى هذا الهدف ، هدف العظمة الوطنية .

الفاشية والبلشفية : والفاشية والبلشفية نوعان من الحكم فرضا على معاهد العلم بحكم قيام الحكومات التى تؤمن بهما . والغرض من التربية[٣] عندهما هو : « إعداد الفرد ليكون جزءاً فى نشاطه وعمله وإنتاجه — من نشاط الدولة وعملها وإنتاجها » وقد كانت هذه هى أهداف التربية أثناء الحرب الماضية ، عند كل الأمم المحاربة التى حولت المدارس إلى معسكرات لتمرين الجنود وإعدادهم لسفك الدماء .

وهكذا نجد فى الأمة[٤] الخاضعة لنظام السلطة المطلقة ، أن المدارس ، والجامعات والصحف ، والخطابة العامة والسينما ، والمسارح ، والإذاعة ، وكل هذه العوامل المختلفة فى التربية ، توجه تربية النشء إلى الفناء فى خدمة الدولة ، من أى نوع كانت الخدمة . فالغرض من التربية عندها إذن هو : « إعداد الفرد ليكون خادماً للدولة » .

هذه بعض أغراض التربية الواقعية العملية فى بعض الجماعات البشرية

---

(١) ص ٤٠٨ من كتاب تاريخ التربية لمنرو .

(٢) ص ٣١ من كتاب On Education لمؤلفه برتراند رسل

(٣) ص ٥ من كتاب :

Education for Citizenship, issued by Association For Education in Citizenship

(٤) ص ٣٢ من الجزء ٧ من دائرة المعارف للمدرسين .

والأمم اختلفت من عصر لعصر ومن مكان لآخر . وقد ذكرنا أن للمصلحين والفلاسفة بل لبعض الأفراد العاديين — آراء خاصة بأغراض التربية ؛ فلنتعرض هنا لبعضها .

ب — أغراض التربية من الناحية الفلسفية والنظرية

من أقدم الفلاسفة الذين عنوا بالتربية، وكتبوا عنها أفلاطون ، الفيلسوف الإغريقى (٤٢٧ — ٣٤٧ ق.م) ، فقد كتب فى جمهوريته عن النظام الذى يختاره للمدينة الفاضلة. وبين أن الغرض من التربية[١] هو « أن يصبح الفرد عضواً صالحاً فى المجتمع » وعنده « أن تربية الفرد ليست غاية لذاتها ، وإنما هى غاية بالنسبة للغاية الكبرى ، وهى نجاح المجتمع وسعادته » . وهو يرى أن صلاح الفرد لا يكون إلا بمعرفته الخير ، وتقديره إياه . وعلى هذا فلا يكون الفرد عضواً صالحاً [٢] إلا إذا كان عارفاً بالخير ؛ لأن معرفة الخير فضيلة .

أما أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق.م) فيرى أن الغرض[٣] من التربية هو « أولا أن يستطيع الفرد عمل كل ما هو مفيد وضرورى، فى الحرب والسلم . وثانياً أن يقوم بما هو نبيل وخير من الأعمال ، وبذلك يصل الفرد إلى حالة السعادة » .

و يرى فيتورينو دا فلترى Vittorino Da Feltre أشهر المربين بإيطاليا فى عصر النهضة (١٣٧٨ — ١٤٤٦) أن الغرض من التربية « تنمية الفرد من جميع نواحيه : العقلية ، والخلقية، والجسمية — لا لمهنة خاصة ، ولكن ليكون مواطناً ، صالحاً ، مفيداً لمجتمعه، قادراً على أداء الواجب العام والخاص » . فهذا الغرض الذى نادى به فيتورينو منذ خمسة قرون شبيه بما ننادى نحن به فى القرن العشرين ، من إعداد الفرد ، ليكون مواطناً صالحاً .

وكان فرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦) أحد الفلاسفة الإنجليز الذين كتبوا فى : السياسة ، والدين ، والتاريخ ، والآداب ، والمنطق ، والفلسفة . وقد ظهر فى عهد وصل فيه العلماء إلى بعض الكشوف العلمية ، مثل

---

(١) ص ١٣٢ من تاريخ التربية لمنرو .
(٢) ص ٤٠ دائرة معارف المدرسين .
(٣) ص ٤٨٢ من تاريخ التربية لمنرو .

كشوف غاليليو وغيره . فتأثر بآرائهم . وكان يرى أن التربية ليست غايتها أن تجعل الناشئين خبيرين بالعلوم عارفين لها ، بالطرق التقليدية القديمة ، طرق الرواية والفلسفة ؛ ولكن غاية التربية : أن تفتح أذهانهم ، وتوجههم إلى طريقة كسب العلوم ، حتى يستطيعوا الاستفادة منها ، متى أرادوا . وذلك بمنحهم الحرية العقلية التى تمكنهم من إدراك كل أنواع المعارف وتفهمها . فالغرض من التربية عنده « أن يعود الفرد طريقة الوصول إلى المعارف ، لا أن يجمع المعارف ، بأية طريقة كانت » . ولذلك يقال : إن بيكون لم يعن بمسائل التربية وفلسفتها ، وإنما عنى بطريقة كسب المعرفة ، التى هى من أهداف التربية ، فهو بهذا قد استخدم نوعاً جديداً من الأسلوب العلمى هو الاستقراء الذى — وإن كان معروفاً فى عهد الإغريق — إلا أنه لم يكن شائع الاستعمال فى عهده .

ومن الذين كتبوا فى التربية وأغراضها كومنيوس[1] John Amos Comenius الذى ولد وعاش فى مورافيا (١٥٩٢ — ١٦٧١) والذى كان لتربيته وحياته الدينية أثر فى آرائه التربوية ، وفى الغرض من التربية عنده . فقد كان يرى أن النهاية التى يرمى إليها الإنسان « هى السعادة الأبدية عند الله » . وعلى هذا يجب أن يكون الغرض من التربية تحقيق هذه السعادة . ويكون ذلك بالتخلص من الرغبات الفطرية ، ومقاومة الغرائز والانفعالات ، وتزويد الفرد بالرياضة العقلية والخلقية التى توصله إلى هدفه ، وبقدرة الفرد على ضبط نفسه . ولا يكون هذا الضبط ممكناً إلا عن طريق المعرفة ؛ معرفة الفرد حقيقة نفسه ، ومعرفة كل شىء حوله . وعلى هذا أيضاً كان الغرض[1] من التربية عنده « تحصيل المعرفة والفضيلة ، والصلاح » .

وهذا غرض شبيه بما كانت عليه التربية فى الأزهر ، حتى عهوده الأخيرة . أعنى « أن يصير المسلم عالماً ، فاضلا ، صالحاً » ، ومن الطبيعى أن تكون أغراض التربية عند رجل دينى مثل كومنيوس دينية أيضاً .

جاء جون لوك John Lock ، واشتغل بالتربية والفلسفة . وكان له رأى فى التربية ، وكان من أنصار المذهب التهذيبى Disciplinary Education ، وهو يرى أن التربية لها أغراض ثلاثة :

فالتربية الجسمية ترمى إلى تقوية الأبدان ونشاط الجسم ، والتربية العقلية

---

(١) الاسم بالعربية كومينوس .

(٢) ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ تاريخ التربية لمنرو .

ترمى إلى تزويد العقول بأنواع المعارف والعلوم . والتربية الخلقية ترمى إلى غرس الفضيلة فى النفوس . فهو إذن فى فلسفته الخاصة بالتربية ، لا ينظر إلى قيمتها من حيث نشاط الإنسان فى المجتمع وحياته ، وإنما من حيث أثر التربية فى قوى الإنسان الجسمية ، والعقلية ، وتكوين الفضيلة فى ذاتها .

وفى القرن الثامن عشر ظهر فى أوربا حركة تربوية ، تسمى « الحركة الطبيعية » . وكانت تدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق ميوله ، وطبائعه ، وتشجيع غرائزه ، وإفساح المجال لنموها ، وكذلك العمل على تقوية صلة النشء بالطبيعة . وكان جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau ، (١٧١٢ — ١٧٨٨) زعيم هذه الحركة . وهو الذى نقل مركز اهتمام التربية إلى طبيعة الطفل وميوله ، وهو يقول « لابد للمربى من محاربة إحدى ناحيتين : طبيعة الطفل ، أو النظم الاجتماعية ولأن يضحى بالثانية خير له من أن يضحى بالأولى » .

فالغرض من التربية عنده هو تكوين رجال كاملين ، لا تكوين مجرد أعضاء فى المجتمع .

ومن رجال التربية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر بستالوتزى Pestalozzi (١٧٤٦ — ١٨٢٧) وكان رأيه : أن الغرض من التربية ، هو إعداد بنى الإنسان للقيام بواجباتهم المختلفة فى الحياة . فهو إذن يهدف إلى غرض عملى اجتماعى ، يجمع بين إعداد الفرد ، وبين حاجاته فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وإذا انتقلنا إلى القرن التاسع عشر ، وجدنا من أشهر المربين : هربرت سبنسر الإنجليزى Herbert Spencer (١٨٢٠—١٩٠٣)، وكان يرى أن الغرض من التربية هو الإعداد للحياة "Education is a preparation for life" فيقول ، إن وظيفة التربية هى إعدادنا للحياة الكاملة "To prepare us for complete living is the function which education has to discharge"

ونحن نعرف أن التربية فى عصره كانت مقصورة على عدد محدود من الناس ، هم الخاصة . وكانت تقليدية شكلية ، وسائلها الكتب والمعارف المستمدة من الفلسفة الإغريقية واللاتينية . وقد شرح رأيه فى الحياة الكاملة ، بأنها الحياة التى تتوافر فى خمس وظائف تقوم بها التربية ، عن طريق إعداد المرء بخمسة أنواع من المعارف هى :

١ ــ المعارف الضرورية للمحافظة على حياة الفرد ، وعلى صحته .

٢ ــ المعارف الضرورية لكسب العيش وجعل الفرد قادراً من الناحية الاقتصادية .

٣ ــ المعارف الضرورية لتربية الأسرة .

٤ ــ المعارف الضرورية للمواطن الصالح ؛ لأن الفرد عضو فى جماعة من الجماعات ، له حقوقه ، وعليه واجبات نحوها .

٥ ــ المعارف التى تمكن من استخدام وقت الفراغ استخداماً مفيداً . وقد وجه إلى رأى سبنسر هذا نقد منه :

(ا) أنه وجه عناية كبيرة إلى المعارف المحضة ، وإلى التعليم باعتباره وسيلة صالحة للتربية ، ولتكوين الخلق . وعيب ذلك أنه يهتم بالناحية العلمية المحضة ، ويهمل الناحية الوجدانية ناحية العواطف والغرائز ، فمعرفة قوانين الصحة ــ مثلا ــ لا تضمن دائماً تطبيقها .

(ب) وأنه يرى تعليم المواد بحسب أهميتها ، من حيث فائدتها للإنسان ، وتحقيقها لأغراض التربية . فهو يبدأ بالفسيولوجيا ، والصحة ، والطبيعة ، والكيمياء ، ثم العلوم والفنون العملية التى تؤدى إلى كسب العيش ، وتأتى فى الآخر العلوم الاجتماعية كالآداب وعلوم الجمال واللغات . وهذا ترتيب قد يبدو منطقياً ولكنه لا يتمشى مع نمو الطفل وحاجاته .

(حـ) أنه عنى عناية زائدة بالفائدة المادية للمعارف ، فهو يضحى بالشىء السامى وهو الثقافة ، من أجل الشىء الوضيع وهو المادة . ولكن هذا النقد غير صحيح[1] لأن سبنسر لم يهمل التربية الثقافية ، فقد طلبها لوقت الفراغ .

(د) أن المعرفة فى ذاتها ليست قوة ، وإنما القوة فى تطبيقها واستخدامها ، ولهذا يؤخذ عليه قوله : إن التربية إعداد للحياة ، وليست الحياة نفسها

تلك هى أوجه النقد التى وجهت لأغراض التربية ووسائلها عند سبنسر .

---

(١) تاريخ التربية لمنرو .

ولذلك لما جاء «جون ديوى» John Dewey المربى الأمريكى الشهير قال:
"Education is not a preparation for life, but Education is life itself."
فهو يرى إذن أن التربية فى ذاتها جزء من الحياة، وليست الحياة شيئاً غيرها. فكل مرحلة من مراحل نمو الطفل، وتربيته، تكون جزءاً من حياته. وإذن فغرض التربية، وهدفها، ليس شيئاً خارجاً عنها، وإنما هو فيها: فالطفل يربى بالعمل والتجربة، وتنمية مواهبه، وميوله، وقدراته، وتشجيع نشاطه. وهو فى هذه الحياة يحيا ويعيش. وعلى هذا «فالتربية عنده هى الحياة عينها»، ولذلك ينادى بضرورة جعل المدرسة جزءاً من الحياة، بمعنى أن الطفل يعمل فى داخلها ما يعمله لو كان خارجها.

وقد سبق روسو الفرنسى ديوى الأمريكى إلى القول بضرورة اعتماد التربية على قوى الطفل وميوله الطبيعية، لا أن تملى عليه إملاء. فالطفل غرائز وميول، هى حوافز له تدفعه ليفعل أشياء كثيرة متنوعة فى مراحل مختلفة، والمدارس تتجه فى ناحية تخالف طبيعة الطفل: فهى تأخذ المعارف المتجمعة من تراث الأجيال السابقة، المعارف التى لا صلة لها بنمو الطفل، وتكرهه على تحصيلها، بدلا من أن توجهه لكشف ما يميل إلى كشفه ومعرفته. وفى هذا المعنى يقول جون ديوى:

"The school must represent present life as real & vital to the child as that which he carries on in the home, in the neighbourhood, or in the play ground."

وقد اتضح لنا بعد عرض هذه الأغراض الفلسفية من التربية أنه نشأ فى كل عصر مفكرون مصلحون لم ترضهم الأغراض العملية السائدة فى عصرهم، فحاولوا تغييرها، وأعلنوا رأيهم فيها. ومن هؤلاء المفكرين المصلحين من نجح فى التأثير على اتجاهات التربية وأهدافها فى عصره، ومنهم من لم تخرج آراؤه عن حيز الفلسفة. ومنذ بستالوتزى أخذت التربية اتجاهاً تطبيقياً. وصار المفكرون من المربين يعمدون إلى تطبيق نظرياتهم وآرائهم. وقد وجدت التربية فى أمريكا ميداناً متسعاً للتجربة. ونشأت مدارس تربوية كثيرة من أهمها مدرسة جون ديوى.

ومن كل ما تقدم من آراء فى التربية وأهدافها نستطيع أن نستخلص: أن

التربية عملية تغيير أو تكييف ، ونمو مستمر فى الفرد ، وأنها تعمل دائماً على إيجاد التوازن بينه وبين البيئة التى يعيش فيها . فهى إذاً تغيير يقوم الفرد ويعده لمكانة فى المجتمع فى كل لحظة من لحظات حياته. ومن هذا نفهم معنى ما يقال من أن للتربية وظيفتين ، أو غرضين : وظيفة فردية ، ووظيفة اجتماعية . فالفردية : هى مساعدة الفرد لينمو نمواً صحيحاً كاملا ، بحسب قواه الطبيعية . والاجتماعية : هى جعل هذا النمو بحيث يجعل الفرد عضواً صالحاً فى المجتمع الذى يعيش فيه . وهذا ما قصده جون ديوى بقوله [1] :

"The Educational process has two sides : one psychological and one sociological and neither can be subordinated to the other, or neglected without evil results following".

وبعد فقد عرضنا الآن لأغراض التربية الفلسفية فى العصور المختلفة ، منذ فلاسفة اليونان إلى فلاسفة القرن العشرين ، وقد صار اتجاه التربية الآن فى العالم ، وهدفها ، هو إعداد الفرد إعداداً مناسباً لقواه ، ومواهبه ، حتى يصير عضواً صالحاً فى المجتمع . "Education for Citizenship" : ولنقدم للقارئ الآن دراسة لبعض أغراض التربية .

عرض وتحليل لبعض أغراض التربية

إن الغرض من التربية هو الذى يحدد للمربى طريق السير ووضع النظام العام للتعليم واختيار مواده . فجدير بنا أن نعرض هنا باختصار الأغراض المختلفة التى دعا إليها بعض المربين وأن نحللها كى يتضح لنا السبيل .

أولا — كسب الرزق Bread & Butter Aim

حقيقة أن التعليم قد يمكن الفرد من كسب رزقه ، وربما كان غرض فريق عظيم من الآباء من إرسال أبنائهم إلى المدارس أن يتزودوا من العلوم بما يستطيعون به أن يكسبوا الرزق ويشتغلوا بعمل ينتفعون به .

وإن أظهر ما يميز هذا الغرض أنه محدود واضح ، لكنه مادى محض وأثره عظيم فى صرف الإنسان عن كثير من وجوه التهذيب والتربية العقلية ، والوقوف

---

(١) ص ٤ من كتاب Education Today, by John Dewey

بميوله عند حد المادة وعبادتها ، فيحتقر ما عدا السعى وراءها ، ويصبح ضعيف التصرف قصير النظر جامداً على طرق معروفة فى كسب المال لا يحيد عنها ولا يعمل على ترقيتها . وقد يكون المجال أمامه واسعاً لو أنه كان قوى المواهب ذا قدرة على الافتنان .

والمنادون بهذا الغرض لا يوجهون اهتمامهم إلا للعلوم ذات الأثر المباشر فى الحياة المادية العملية . وهم يهتمون بالصناعة والهندسة العملية . فهى فى رأيهم أفضل من التاريخ والحقوق الوطنية والأدب وغير ذلك .

ولكن التربية إذا جعلت أهم أغراضها كسب العيش جرت على الفرد وعلى الأمة شروراً كبيرة . ذلك لأن كسب العيش ليس كل شىء فى الحياة ، فإنا لا ندرى ما مصير الطفل ومستقبله فى الحياة حتى نعده من المبدأ إعداداً خاصاً ونهمل تثقيف عقله تثقيفاً تاماً ولأن تحقيق هذا الغرض فقط يبرر كل وسيلة .

على أن هناك نواحى فى الحياة لابد من العناية بها ، ولا بد من أن يهتم بها رجال التربية ، وهى ساعات الفراغ وطريق قضائها . ولا تقل هذه فى الفائدة عن ساعات العمل . فإن وقت الفراغ ميدان عظيم للتربية والتعليم والتهذيب ، وتكوين الفرد تكويناً نافعاً ، وإمداده بما لا يستطيع معرفته فى الحياة الدراسية . وإن من لا يحسن فى حياته إلا أن يكسب المال ويشتغل كالآلات الصماء لا يكون له نصيب كبير فى الفطنة والعقل والمقدرة والخلق الصحيح .

ومما يحملنا على الشك كذلك فى جعل الغرض الأسمى للتربية هو كسب العيش أنه أولا : قد يستطيع الناس أن يحققوا هذا الغرض من الحياة دون الاحتياج إلى المدارس . ونتيجة لهذا فإن المدارس قد توجه مجهوداتها لتحقيق أغراض أخرى أسمى وأفضل. ثانياً : أن الأشياء التى تعمل لأجل كسب العيش ليست من المنفعة كتلك التى تعمل لأغراض أخرى .

فحصر الطفل فى طريق محدود فى الحياة ليس صواباً . والذوق السليم يوحى إلينا بأن الغرض من التربية ليس تهيئة الناس لكسب العيش ، بل الغرض منها جعلهم أهلا للحياة . وإعدادهم لكسب العيش هو على أى حال جزء من الغرض الذى يرمى إلى جعلهم أهلا للحياة .

فكسب العيش والمال إذن غرض ناقص لا يصلح وحده غاية للتربية .

ثانياً — الحصول على المعرفة

وهذا الغرض نقيض الغرض السابق . فالأول يمثل الوجهة العملية من الحياة ، والثانى يمثل الناحية المثالية .والأول مادى عملى شعاره السعى والكفاح والثانى أدبى نظرى شعاره البحث عن الحقائق .

وفى هذا الغرض يتجلى المثل الأعلى للرجل الباحث ، وللفيلسوف المنقب عن المعرفة . وهو المثل الأعلى فى نظر أفلاطون وأرسطو . وقد اهتم به « ملتون » ، « وكومينوس » ، « وبيكون» ، وقد وضع « ملتون » منهجه الغريب لأكاديميته على أساس هذا المثل الأعلى للمعلومات .

وهذان الغرضان — كسب العيش وغرض المعرفة — وإن تناقضا نظرياً يمكن تلاقيهما فى الجهة العملية . إذا لاحظنا أن القواعد العلمية أو أكثرها لها أثر عظيم فى الحياة المادية والعملية ،وأن المعلومات التى تتكون من الحقائق والقوانين والمبادئ قد حفظت وقدرت قيمتها تبعاً لنفعها .

على أن هذا الغرض لا يخلو من نقص أيضاً .والخطر هنا لا يكون فى طبيعة النتائج الموضوعية ، بل فى طبيعة الميول الباطنية . فإن الحرص على جمع الحقائق لذاتها شبيه بالحرص على جمع المال وكنزه ، كل منهما يميل إلى أن ينمى فى الفرد تلك الحالة العقلية التى تكون فى البخيل .

ورب قائل يقول : إن جمع الحقائق وادخارها لا يمنع المرء من أن يستخدمها فيما بعد فى حياته العملية . ولكننا نقول : إننا نخشى أن يفضله المرء على التفكير فى هذه الناحية ، وإن الحقائق لا تنفع إلا إذا استخدمت فى الحياة وظهرت آثارها ، وجمع الحقائق وإدخارها يحول بين الفرد وبين الانتفاع بها . فالتربية اليوم ليست مقصورة على المعرفة ولكنها تتضمن أيضاً العمل . حقيقة أن المعرفة جزء هام فى التربية ، والإنسان يمكنه أن يؤدى عمله فى الحياة كما يجب إذا كان لديه الكثير من المعلومات عن الحقائق التى يعمل فى دائرتها . هذا وإذا كان للمعرفة أن تنال مكانة ممتازة بين الأغراض العامة للتربية يجب أن يكون الغرض الحقيقى من التربية هو المعرفة من أجل العمل ، وليس من أجل المعرفة فحسب .

وقد كان هذا الغرض منتشراً فى مدارسنا إلى عهد غير بعيد . وربما كان قوى الأثر فيها الآن . فإن التعلم فيها يتحول إلى استظهار الحقائق والنهامها لاجتياز الامتحان ، وإحراز الشهادات . ولا غرابة أن ينتج عن ذلك خروج المتعلم بعد اجتياز الامتحان عاجزاً عن السير فى الحياة العملية ، لا يرى فى الحياة على كثرة سبلها ، واتساع موارد الرزق فيها ، إلا أبواباً مغلقة .

ولا نقصد من هذا أن نقلل من قيمة المعرفة أو من قدر العلم . فالعلم تراث الآباء والأجداد . ولكنا لا نراه الغرض الوحيد من التربية فربما كان سلاحاً للإضرار ووسيلة للتدمير .

ثالثاً — الغرض التثقيفى Culture Aim

وهنا نكتسب المعرفة لا من أجل المعرفة ، بل لأن التقاليد قد عملت على تنمية مستويات معينة من الثقافة . وهذا يتضمن اكتساب عناصر معينة من المعرفة ، واكتساب تجارب تقليدية خاصة . وليس من الضرورى أن تفيد هذه الثقافة المرء لاستعمالها فى مشاكل الحياة ، وإنما تكسب الفرد نفوذاً بين أقرانه . فمثلا القدرة على قراءة اللغة اللاتينية كانت تعلى كثيراً من قدر الطالب ، لأن المجتمع كان يعلى من شأن الحاصل عليها . ولقد كان ذلك من أهم أغراض التربية ، عند الإغريق فالمجتمع اليونانى فى ذلك العصر القديم كان يتكون من طبقتين : طبقة الأحرار وطبقة العبيد وكان على طبقة العبيد أن تقوم بفلاحة الأرض وبالأعمال المهنية . أما طبقة الأحرار فكانت تعيش على ما تنتجه طبقة العبيد ، ولم يكن لديها عمل ما . فاضطرت أن تنشئ المدارس لتكون بمثابة أندية لهم يقضون فيها وقت فراغهم من القراءة والتثقيف . وفى القرون الوسطى وعصر النهضة كان المهذب عند الغربيين هو ذلك الشخص الذى يجيد فلسفة أرسطو ويتمكن من قراءة آداب الإغريق واللاتين . فقبل أن تظهر اللغات الأوربية فى شكلها الحالى المنظم كان على الذى يريد أن ينال قسطاً من حكمة القرون الماضية وآدابها أن يلجأ إلى اللغة اللاتينية ، لأنها كانت لغة النقدة فى ذلك العصر .

على أن الكثير من الدراسات الثقافية قد يكون قليل النفع من الناحية

العملية . وقد لا يكون له تلك المنفعة فى الوقت الحاضر . فالدراسات الثقافية — بعبارة أبسط — تمثل التجارب التى يندر أن يطبقها الفرد فى شئون الحياة ، وهى دراسات قد تمكن صاحبها من حسن قضاء وقت الفراغ . وفى هذا المعنى يقول شيشرون : إن الآداب وحى الشباب وبهجة الحياة وزينة المستقبل السعيد وسلوى الإنسان إذا ما دهمته الخطوب . هى نزهة لطيفة أثناء مراحل الدراسة ووسيلة محبوبة لقضاء أوقات الفراغ » فالآداب أصدق المصادر والمراجع وهى الحافز المنشط لتفكيرنا .

والآداب فى نظر أرزمس إحدى العناصر الحية الجوهرية فى الثقافة الاجتماعية . وهى كفيلة بأن تجعل صاحبها مهذباً أنيساً حى الضمير منصفاً قادراً على القيام بمهام الأعمال السياسية والاجتماعية . وهى التى كانت تبرر وجود رجل التربية فى ذلك العصر لأن عمله ومهنته كانت تنحصر فى هذا الغرض .

ولا زال للدراسات الثقافية مركزها الملحوظ فى برامج الدراسة بالمدارس . وفى كثير من الحالات نجد لها الأهمية الأولى فى تلك البرامج . والسبب الحقيقى لثبات تلك الدراسات الثقافية ، فى مناهج المدارس الحالية ، هى أنها تمثل ذلك العون الثقافى الذى يجب أن يطبع به كل أديب ، لا سيما فى الأمم شديدة التمسك بالتقاليد . فهى تخلق من الفرد شخصاً مثقفاً a gentleman يمتاز بطابع خاص فى التفكير ، وباستخدام عبارات معينة تميزه عن الغير . "

رابعاً — النمو المنسجم لجميع قوى الإنسان

The harmonious development for all the powers and faculties of man.

وهذه الغاية تؤدى إلى إنتاج ذلك الشخص الذى يأخذ بنصيب ، ويعرف قدراً معيناً من كل عمل ، ولكنه لا يتقن شيئاً ، وقد يحتاج المجتمع أحياناً لبعض أمثال هؤلاء ، ولكنه لا يحتاج إلى نظام من التعليم الغرض منه إخراج قدر عظيم من هذا النوع . إن هذه الغاية تأتى بنتائج غريبة جداً حين يعمل بها . فهنا مقدرة طبيعية وعلى ذلك فمن واجبنا تنميتها ، ولكن ليس هذا بصحيح . فوجود القدرة لا يكون سبباً كافياً لتنميتها ، ونحن إذا أخذنا بهذا الرأى فكل نسيج عضلى يجب أن يعمل ولا ينبغى أن يسمح له بالاضمحلال عن طريق

عدم الاستعمال . ووجهة النظر هذه تهمل حقيقة بسيطة ، ألا وهى اختلاف ظروف الحياة فى الماضى والحاضر . فمثلا لا زال لدينا ميول تتصل بالظروف الهمجية ، وهى الميل لأن نلحق بأعدائنا أضراراً جسمية أو مادية ما دام هذا يرضينا ، دون مراعاة لحقوق غيرنا ، ولكنا نعمل كل جهدنا لكى نميت هذه الميول . وقد كان لهذه الغاية أيضاً اتجاه خاطئ بزيادة اهتمامها « بالتمرين الحسى » ، وخصوصاً الحواس الدنيا ، التى لا يمكن أن تعتبرها على شىء عظيم من الدقة عند الإنسان . فحاسة السمع مثلا قد اضمحلت الآن لدينا وذلك لأننا لسنا فى حاجة إليها فى ظروفنا الحديثة ، ومما لاشك فيه أن حاسة الشم الحادة كانت ذات قيمة قصوى فى وقت ما من تطور الجنس ولكن مهمتها قد حل محلها عوامل أخرى مثل حدة النظر والسمع إلى حدما . وثمة حقيقة أخرى تقول إن الذكاء العقلى فعال أكثر من مجرد حدة الحواس ، وحدة العقل تتضمن تركيزاً ، وإطالة لعامل الانتباه . فكل ما يتدخل فى هذا الانتباه يتدخل فى الكفاءة العقلية ؛ فحاسة الشم تشتت الانتباه . أو بعبارة أخرى تحصر الانتباه فيها . وأعظم مثل لذلك أن الرائحة القوية هى أكبر مثير لتشتيت الانتباه . وبما أن الذكاء يقوم بشىء من مهمة تلك الحاسة فليس من الضرورى إذن صرف وقت ونشاط لتنميتها .

ولا ننسى الإشارة إلى تنمية قوة الملاحظة ، وهى القدرة على ملاحظة الأشياء الصغيرة ، وخصوصاً الأشياء الخارجية التى نحصل المعلومات عنها عن طريق حاسة البصر . ويمكن تحسين هذه القوة لملاحظة الأشياء البسيطة فى البيئة المحيطة عن طريق التدريب . ولكن هذه أيضاً تعتمد على البيئة ، فالجيولوجى يلاحظ الاختلافات فى حفريات الأرض وتركيب الصخور ، والرجل الفنان يلاحظ الاختلافات المتنوعة فى اللون وتدرج الألوان وتداخلها بعضها فى بعض . . . إلخ. فكل من هذه القدرات ذات قيمة لصاحبها . وكل سينمى مقدرته الخاصة فى أثناء تمرينه على عمله . أما الرجل العادى فإن عادة ملاحظته كل شىء صغير فى بيته لاشك ستكون نقمة لا نعمة. فالإنسان قد اكتسب بالتدريج القدرة على تركيز الانتباه فى شىء ، وإهماله ما ليس له علاقة بموضوع انتباهه . فإذا كانت الطبيعة قد حذفت كل ما من شأنه أن يشتت الانتباه فلماذا نعمل نحن على تنميتها ؟

وإن نظرة تحليلية إلى هذا الغرض ترينا أنه يؤكد تأكيداً زائداً جداً كل ما يتعلق بالفرد . فأنصاره لم يقصدوا فكرة : تقوية الذاتية فى جو اجتماعى . زد على ذلك أن كفاءات الأفراد تختلف باختلاف المجتمعات . وإذا نحن اتخذنا من هذه الغاية هدفاً للتربية نكون فى حاجة إلى أنواع متعددة من التربية . وهذا يتنافى مع المبدأ الذى ينادى بضرورة وجود غرض عام للتربية .

على أن هذه الغاية لا تخلو مطلقاً من محاسن تبرزها وتجعل لها قيمة نسبية . فهى أولا وقبل كل شىء تؤيد حقوق الأفراد فى تسيير ميولهم وكفاءتهم ، كما أن هذه الغاية تذكرنا دائماً بأن قيمة الكل أهم من قيمة الجزء . وهى أيضاً تجعلنا نفكر فى النواحى المتعددة من ميول الإنسان ورغباته . فهى احتجاج آخر ضد فكرة ترقية الإنسان فى ناحية واحدة .

وأخيراً نتساءل : ما قيمة هذه الغاية فى التربية ؟ إن مواطن الضعف البارزة فى هذه الغاية وغموضها واشتباك الآراء فيها تقلل من أهميتها . فنحن نبحث وراء التعبيرات القوية دون أن نقف لنفكر فى حقيقة معناها .

خامساً ــ التكوين الخلقى Moral, Aim (of Education)

يجب أن تنمى قوى الفرد بحيث تصبح فى توافق مع المستوى الخلقى السائد . وقبل أن نقبل هذا الهدف يجب أن نفهم معنى كلمة الأخلاق أو الخلق Morality يعتقد كل من أرسطو وهربارت الألمانى أن الغاية فى التربية « هى النمو الخلقى » ، ويجد أرسطو أن الإنسان فيه ميلان : الأول وجدانى وهو سرعة التهيج والوحشية والثانى عقلى وإنسانى . ويعتبر هذا الميل الأخير أساس الأخلاق . وإنماء هذا الميل وترقيته هو من عمل التربية ، ولهذا كانت الأخلاق تنمو وترقى عن طريق التربية لأنها تغزو تلك الدوافع الهمجية ، وتهدمها بواسطة الذكاء . وليست الأخلاق سوى إحلال المبادئ السامية محل الدوافع الأولية الدنيا . ويقول هربارت إن مهمة التربية الحقيقية يمكن أن نلخصها فى كلمة « الأخلاق » والخلق لديه عبارة عن إحلال المبادئ السامية محل الدوافع الأولية الدنيا (مثل نزعات الانفعالات والشهوات) . أى أن الخلق فى نظر هربارت يعتمد على التجربة . ومعنى ذلك أن الإنسان لا يولد مخلوقاً خلقياً ، ولكنه يكتسب الخلق فقط بعد

عملية طويلة شاقة تلك العملية هى المعروفة بالتربية . فالخلق يجب أن ينمى ، والخلق يمكن أن ينمى بواسطة عملية التربية ، وكل الوسائل الأخرى ثانوية جداً بالنسبة لهذه الغاية . فالذى نسميه الخلق الآن هو كبح جماح الدوافع التى ورثناها من خط طويل من أجداد همجيين متوحشين ؛ فحينما نكون جائعين فإن الدافع الطبيعى سوف يكون لامتلاك أى طعام نجده . ولكن إذا كان هذا الطعام ملكاً لغيرنا ، فإننا سنكبت هذا الدافع بفكرة أن هذا الطعام ليس لنا وليس لنا حق فيه . وفى الحقيقة نحن قلما نجرب هذا الكبت لأن الميل لاحترام حقوق الآخرين قد ثبت فى أجهزتنا العصبية ، لدرجة أنه قلما نشعر بتلك الدوافع الأولية . والفضل فى ذلك يرجع إلى التربية والتعليم . أما الرجل البدائى فلا يسلك مطلقاً مثل هذا الاتجاه لأنه لن يهضم التجارب التى ستؤدى إلى تعديل دوافعه بهذه الطريقة. فالخلق إذاً ما هو إلا تعود الاتجاه نحو العمل الخلقى.

والتربية إذن يجب أن توجه عنايتها نحو غرس الأخلاق الإيجابية ، بمعنى أننا نعلم الطفل الأخلاق ، لا عن طريق نهيه عن ارتكاب الأخطاء ، ولكن بإعطائه المثل الأعلى للأخلاق . ونفسر ذلك بأن نقول « إن الأفضل للمدرسة أن تعلم الولد كيف يكسب رزقه بأمانة من أن تأمره بعدم السرقة ، الأفضل أن نبث فيه روح التعاون مع غيره من الأطفال الصغار من أن نعلمه عدم استئثارهم وإغاظتهم . وهذا هو أفضل أسلوب يجب أن تعنى به المدرسة فيما نزيد أن يتعلمه الأطفال لا فيما نريد أن نمنعهم عن عمله » .

والأخلاق هى الحياة فى جميع مناحيها فهى تتضمن التصرف بعقل وحزم . وهذا لا يفارق عملا فى الحياة . فالأفكار والأعمال لا قيمة لها إلا فى ضوء الخلق الصحيح . فليست الأخلاق مقصورة على حفظ النصائح وقول الصدق وغير ذلك ، ولكنها ذات صلة بجميع التصرفات فى الحياة . ويندرج تحت هذه العناية بالجسم والاهتمام بالعلوم العقلية فإنا حينما نعود الناشئ العناية بصحته ونمو جسمه أو البحث وراء الحقائق إنما نعمل على أن نطبعه على خير العادات وصريح الخلق ، وهذا من أهم ما نعنى به فى التربية العامة الكاملة . ولا ننسى أيضاً أن الغاية القصوى من العلوم إنما هى حسن التصرف فى الحياة .

ويحاول الأستاذ « ولتن Welton » أن يوفق بين غرض هربارت هذا فى

التربية الخلقية وبين رأى كل من « تورنديك وهندرسون » فى أن للتدريب العقلى الأهمية الكبرى فى عملية التربية . فيؤكد بأن كليهما متمم للآخر ، ولا يمكن لأحدهما أن يعمل منفصلا عن الثانى . فالأعمال الحميدة إذا لم تكن مسيرة بعقل راجح تؤدى فى غالب الأحيان إلى كارثة ، كما أن العقل الراجح الذى لا يعمل حسب مبادئ أخلاقية سامية يكون خطراً على الجماعة ووبالا على صاحبه .

وإذا كان « ولتن » يحاول أن يجعل للأخلاق وللتدريب العقلى منزلة واحده فى أغراض التربية فإن اتجاهه يفضل الأخلاق على التدريب العقلى . ويستشهد فى ذلك برأى فيفز Vives إذ يقول : « إن مثل من لا يعرف شيئاً عن الفنون — ولكنه يعرف الفضيلة العملية ويكون حياته ونظمه على أساسها — مثل هذا الشخص يكون أبعد عن الفنون إلا أنه يكون أجدر بالثناء من شخص آخر يتعلم الفنون الإنسانية ولكن تعوزه الفضيلة ، فهو يستحق العار والفضيحة »

ويوجه بعضهم إلى هذا الغرض اعتراضين :

الأول : أنه ناقص كالأغراض السابقة ، فإنه لا يعتد بالتربية الجسمية أو التربية العقلية ، ويهمل أمرهما على ضرورتهما وعظم شأنهما .

الثانى : أن كلمة الأخلاق من الكلمات الغامضة التى اختلف فى تحديدها الباحثون .

سادساً — نمو كفاءة الفرد الاجتماعية كهدف أسمى للتربية

إن الميول الفطرية أو الهمجية التى توجد فى الإنسان هى نتيجة عامل الوراثة ، وهى فى جوهرها فردية خالصة ، وتعمل على إرضاء رغبات الفرد . فهى تعارض كل ما كان اجتماعياً . فبينما التغلب على تلك الميول هو عملية نمو خلقى نجده كذلك عملية نمو اجتماعى . فعلامة الخلق هى تضحية النفس للآخرين Self denial وهذا ولاشك هو جوهر الروح الاجتماعية : فهناك توازن بين الفرد والمجتمع إذا أهملناه أصبحت الشجاعة مجازفة وتهوراً ، والاعتدال زهداً . وتضحية النفس هى أكبر الفضائل إذا كانت من أجل الصالح العام .

وقد أدرك العالم هذه الحقيقة من عصور ، فإن رجلا يضحى بحياته ليقضى على القسوة ينظر إليه العالم كشهيد ، بينما آخر يرتكب نفس العمل ولنفس السبب ويعتبره الرأى العام قاتلا . ووفقاً للمستويات الموضوعة نجد كلا منهما

يستحق نفس الجزاء . ولكن العالم لا يحكم على الأفعال بمستويات الشخص الموضوعية ، ولكن بالنسبة لخير المجتمع .

فالكفاءة الاجتماعية إذن هى المستوى الذى يجب على قوى التربية أن تختار تبعاً له التجارب التى ستؤثر على الفرد . فكل موضوع من المعلومات ، وكل جزء من المعرفة ، وكل عادة ، وكل إجابة يجب أن تقاس بهذا القياس .

والآن جدير بنا أن نتساءل عن معنى الكفاءة الاجتماعية ؟

١ — يعتبر الشخص كفئاً من الناحية الاجتماعية حينما لا يكون عالة على المجتمع . وهو الذى يستطيع أن يهيئ من نفسه — سواء بطريقة مباشرة كفاعل منتج أو غير مباشرة بواسطة الإرشاد والحث أو تعليم الآخرين — المجهود المنتج .

وهذا يتطلب من الفرد القدرة على كسب معاشه ، سواء أكان ذلك بوظيفة منتجة أو فى وظيفة حيث يتجه نشاطه فى مجرى منتج . فمثلا الفلاح والصياد يعملان فى الإنتاج ، فى تسخير منتجات الطبيعة لحاجة الإنسان ، وكذلك الصانع والشيال الذى ينقل هذه المنتجات إلى الذين يحتاجونها ، والتاجر الذى يوصلها إلى المستهلك . أما ربات المنزل فيقمن — بطريق غير مباشر — بخدمة هؤلاء المنتجين . فهن يقمن بمهلة ضرورية فى عملية الإنتاج ، وكذلك الطبيب الذى يحفظ الناس فى صحة تساعدهم على عملهم ، والواعظ الذى يرشدهم ويبعدهم عن الميول التى تتدخل فى كمال إنتاجهم ، والمدرس الذى يجعل المقدرة الإنتاجية أكثر كفاءة ويجعل الناس أكثر خبرة وذكاء ، وكذلك المحامى ، والقاضى ، ورجال الدولة الذين يحفظون الناس بعيداً عن مشاحنات لا فائدة منها . وأخيراً هناك من ينحصر عملهم فى تسلية الناس وتخفيف عبء الضغط عن عقولهم ، وبذلك يمكنون المنتج من أن يذهب إلى عمله بنشاط وعزيمة وبشجاعة عظيمة وأمل جديد .

٢ — يعتبر الشخص كفئاً اجتماعياً حينما لا يتدخل فى مجهودات غيره فيحترم حقوق الآخرين ، ويضحى بمسراته إذا كانت ستتدخل فى مجهودات أقرانه المنتجة .

٣ — وفضلا عن ذلك يكون كفئاً بإخضاعه نشاطه للقوى الاجتماعية التى تسعى نحو التقدم . فهو لا يتجنب فقط إيذاء إخوانه العاملين ، بل يساهم فى تقدمهم ويضحى بمسراته ، إذا كانت تضحيتها تؤدى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى التقدم الاجتماعى .

وإن نظرة تحليلية إلى هذا الغرض — تحقيق الكفاءة الاجتماعية — ترينا أنه

يتضمن الغرض المهنى ، ولكنه قد لا يشمل الميول الشخصية . وعلى أى حال فكلما كان معاش المرء أرقى كانت درجة كفاءته أكبر ، كما أنه يتضمن أيضاً المعرفة (المعرفة بخير المجتمع وصالحه) ولكن لا يعنى أن المعرفة تكون غاية فى ذاتها ، ويشمل أيضاً « النمو المنسجم » من حيث نمو قدرات الفرد بما يتفق مع حاجات المجتمع ، كما أنه يتضمن الغرض الخلقى ؛ لأن المستوى الخلقى هو المستوى الاجتماعى . ويتضمن الغاية الثقافية طالما كانت عاملا إيجابياً فى تقدم المجتمع .

وعلى ذلك فوظيفة التربية أو هدفها هو إعداد الفرد لا للماضى أو المستقبل البعيد بل للمستقبل القريب الذى يمكنه التنبؤ بحاجياته . فالتربية ينبغى أن ترمى إلى تقويم الفرد وتكميله من النواحى : العقلية ، والخلقية ، والجسمية ، والاجتماعية ومعرفة الحقوق والواجبات ، وتزويد الفرد بعمل ينتفع وينفع به ، وتشجيعه على الاستفادة من وقت الفراغ .

استعرضنا الآن أهم الآراء عن أغراض التربية ، ولكنه قد يبدو للقارئ لأول وهلة أن كل غرض من هذه الأغراض السابقة الذكر صحيح أو مقنع فى حد ذاته ، بيد أنه إذا أنعمنا النظر فى هذا الأمر وصلنا إلى ما وصل إليه الدكتور م. و. كيتنج الذى قرر : أنه من الصعب تعيين غرض عام للتربية ، وأن ما يبدو من نجاح هذه المحاولات لتحديد غرض عام لها ليس إلا وهماً خاطئاً . وذلك لأن لكل فرد منا وجهة نظر فى التربية تخالف وجهة نظر غيره .

على أنه يمكن الوصول ببساطة إلى مصدر هذا الخلاف فكل نظام تربوى يقوم على فلسفة عملية خاصة تتصل بالحياة اتصالا وثيقاً ، ولما كان كل غرض تربوى محسوس يقوم على وجهات نظر خاصة إلى الحياة : أى يرمى إلى تحقيق مثل أعلى ، ولما كانت المثل العليا للحياة دائمة التغير والاختلاف ، فإننا ننتظر دائماً صراعاً يظهر أثره فى نظريات التربية .

ويرجع السبب الرئيسى لهذا الاختلاف إلى تركيب الطبيعة البشرية ، فالناس يختلف الواحد منهم عن الآخر ، وهم فى آرائهم الفلسفية عن الحياة يميلون إلى إبراز جانب واحد من نواحيها المتعارضة ، ويغفلون النواحى الأخرى . فبعض المفكرين فى أوربا بعد عصر الإصلاح الدينى كانوا يرون أن حياة الفرد وحدة كاملة غنية بنفسها وأن البشر لم يضطروا إلى تكوين هذه المجتمعات إلا لأن الحياة الفردية — وفقاً لقوانين الطبيعة — « حياة وحشة وفقر ، وهمجية قصيرة الأمد » هذه — الحركة الفردية — المتطرفة لم تلبث أن جاء على أثرها

حركة إجماعية تخالف الأولى وصلت إلى أوج عظمتها على يد « هيجل » Hegel الذى بدأ يناقض « هبز » Hobbes كل المناقضة فهو يرى أن المجتمع ليس وليد تفكير الإنسان بل هو الأصل فى وجود كيانه الروحى إذ الدولة قوة روحية عظيمة لا يعدو الفرد فيها أن يكون عرضاً زائلا ، وهى مثالية لم يحلم بها « هبز » وهى روح كبيرة يستمد منها الفرد كيانه أو يستمد منها أيضاً إرادته الخاصة وشعوره وكل ما يعرف من عالم الحقيقة. ومن هنا نتقدم بالقارئ إلى مناقشة أهداف التربية الفردية الاجتماعية.

أهداف التربية الفردية والاجتماعية

القضية التى نريد تحقيقها هى : أنجعل هدفنا فى التربية تكوين الفرد لذات الفرد ، أى ننمى فرديته بجميع قواها بغض النظر عن مطالب المجتمع ونظمه وأهدافه ؟ أم نربى الفرد ليحقق أهداف المجتمع ويتقبل نظمه قبولا أعمى ، ويلبى مطالبه على حساب فرديته ؟ وهذه القضية تمثل طرفين متناقضين يبدو أن أحدهما لا يثبت إلا بزوال الآخر .

ونحن حين ننظر إلى الفرد لا يمكن أن نجرده من المجتمع الذى يعيش فيه ، فهو يعيش فى أسرة وفى قرية أو مدينة . وهذه الأخيرة جزء من أمة ، فلا يمكن أن نتصور إنساناً يربى منعزلا عن المجتمع البشرى وينمو النمو البشرى الصحيح[1] بل لابد له أن يعيش فى مجتمع وأن يتأثر بكل ما فى هذا المجتمع من مؤثرات . كما لا يمكن أن نتصور إنساناً مجرداً من القوى الطبيعية العقلية والجسمية التى تكون فرديته المميزة له ، والتى تستجيب للمؤثرات المختلفة التى تحيط به . وإذن فالإنسان فى نموه خاضع لهذا التفاعل المستمر بين المجتمع والبيئة المادية من ناحيته ، وبين قواه ومواهبه الفطرية من ناحية أخرى . غير أن عوامل التربية المقصودة (الأسرة والمدرسة) يمكن توجيهها بحيث تهدف فى تربية الطفل إلى أغراض معينة ، هى من وضع المجتمع ولمصلحته وخدمته بغض النظر عن ميول

---

(١) من الحوادث المشهورة حادث : Le Sauvage de L'Aveyron وخلاصة هذا الحادث : أنه عثر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر – على طفل متوسط فى غابة قريبة من قرية بجنوب فرنسا بمقاطعة أفيرون Aveyron . وقد نقل هذا الطفل إلى باريس ، حيث قام بتربيته أستاذ شهير هو الدكتور إيتار Itard . وظل يشرف على تربيته نحواً من أربع سنوات كان تقدم الصبى فيها بطيئاً . وفى النهاية يئس إيتار من إيصاله إلى مرتبة الإنسان المتمدين وقال : « إن الإنسان إذا ما حرم من بيئته البشرية فإنه يكون دون الحيوان » انظر كتاب : The Wild Boy of Aveyron by Itard

الفرد ورغباته ونموه التلقائى الحر . وهذا يتأتى بإشراف المجتمع — عن طريق الحكومة أو رجال التعليم وأولى الأمر — على التربية ، وتحكمه فى نظمه وموادها وطرقها وأهدافها . فيملى أهدافه ويجعل كل نظم التربية سائرة نحو تحقيقها . وبذلك يقتل فردية المتعلم ، ويتخذها وسيلة لغاياته . وقد حدث هذا فى الماضى ، ولا يزال قائماً الآن فى بعض الأمم . ففى إسبرطة كان الغرض من التربية « إعداد الشبان للدفاع عن الدولة وصيانتها » ، ولذلك هيمنت الحكومة على تربية الأطفال الأحرار من يوم ولادتهم ؛ ولم تترك الآباء أحراراً فى نوع التربية التى يريدونها لأطفالهم . حتى لقد كانوا يلقون بالأطفال الضعاف على قمم الجبال وللحيوانات المتوحشة ليتخلصوا منها . وكانت التربية فى كل أدوارها خاضعة للحكومة يصب فى أثنائها الناشىء صبا خاصا ، حتى يخرج جنديا مقاتلا . فكأن حياة الإسبرطى الحر كانت خاضعة فى كل صورها لإدارة الحكومة . ولم تكن له أو لأسرته الحرية فى أن يربى التربية التى تتناسب مع فرديته . ولذلك كانت التربية الإسبرطية تضحى بالفرد فى سبيل الجماعة . وكان غرض (أفلاطون) من التربية — كما وصفه فى جمهوريته — « إعداد طائفة من الناس لخدمة الحكومة » . ولذلك قصر همه على تربية هذه الطائفة الصالحة . يتبين هذا من أنه وضع فى جمهوريته نظاماً خاصاً حتم تطبيقه على هذه الطبقة . وبين الغرض فى كل مرحلة من مراحل هذا النظام ، وألزم الشبان بالخضوع له ، وهو بتحكمه هذا فى توجيه الشبان ووضع خطط التعليم ، ألغى نظام الأسرة ، وضحى بالفردية فى سبيل الأغراض الجمعية — أغراض مدينته الفاضلة . ولم يكن أرسطو أقل من أفلاطون حرصاً على تحقيق أهداف المجتمع على حساب نمو الفرد ، فقد رأى أن تشرف الحكومة على التربية حتى قبل الزواج ، وأن تئد من الأطفال الضعاف والمشوهين . وهو يقول : « يقضى النظام الطبيعى أن تقوم الدولة على الأسرة وعلى الفرد ، لأن الدولة كل ، والفرد والأسرة أجزاء ، والكل يجب أن يقوم على أجزائه . فالفرد جزء من أمته ، والغذاء الذى يعطى للجزء يجب أن يتلاءم مع الغذاء الذى يتطلبه الكل ، وما الفرد إلا ملك للأمة » ومعنى هذا أن مصلحة الفرد يجب أن يضحى بها من أجل مصلحة الجماعة ، فلا قيمة للفرد إلا بالجماعة . والواقع أن هذا المذهب الذى يغلب مصالح الجماعة على مصلحة الفرد إنما ينتج عن ظروف خاصة

تحيط بالجماعة ، وتجعل المربين وأولى الأمر يفكرون أولا فى إنقاذ الجماعة مهما كلف ذلك من تضحيات فردية . ونحن نشاهد هذا فى أوقات الحروب . فإن كل طاقة الأمة وجهودها تنحصر فى صيانتها وسلامتها . ولذلك تحول التربية فيها فتجعل جميعها عسكرية تتجه إلى هذا الهدف الجديد . ونجد فى دراسة تاريخ الأمم أنه كلما حلت أزمة خطيرة بأمة ، وكان الخلاص بتضحية الفرد ضحى به ؛ ففى أثناء الثورة الفرنسية ذكر « تاليران » فى تقرير له عن التعليم قدمه للجمعية الوطنية : « إن على المربى أن يلقى فى روح النشء أنهم يعيشون لا لأنفسهم بل لأمتهم ، وأنهم عما قليل سيصبحون هم مدينين لها بأرواحهم ، وأن كل فائدة لا يتعدى نفعها الفرد هى إلى الشر أقرب منها إلى الخير » . وبعد استيلاء الفرنسيين على بروسيا أخذ « فختة » Fichte الفيلسوف الألمانى يلقى فى جامعة برلين سلسلة من المحاضرات عنوانها (نداءات للأمة الجرمانية) تضمنت برنامجاً جديداً للتربية ، طلب فيه أن يكون الغرض من تربية الفرد خدمة الدولة وصيانتها إذ أنه لا بقاء للأفراد من غير الدولة . وكان هيجل من أنصار هذا المذهب والداعين إليه ، وعنده أن الدولة هى الخالدة والأفراد زائلون ، وكل فرد إنما خلق للمحافظة على كيان الدولة[١] وسلامتها . وفى العصر الحديث رأينا كيف أن النظام النازى قد أخضع التربية وأهدافها لمبادئه . ومن أشهر الدعاة لفلسفة إخضاع الفرد لمثل الدولة Giovanni Gentile الفيلسوف الإيطالى ، وأحد رجال التربية . وهو يرى أن الدولة ذات سلطة شبه إلهية ، وأن الفرد يعيش فقط لخدمتها . والحال فى روسيا كذلك فحياة الفرد يجب أن تمتزج نهائياً بحياة الجماعة . وأنه لا يصح أن يكون للفرد رأى أو فن يخالف الجماعة[٢] .

واليابان [٣] الحديثة إحدى الدول التى جعلت العظمة الوطنية الهدف الأسمى للتربية ، فهدف التربية عندها « تخريج مواطنين مخلصين للدولة عن طريق تربية عواطفهم ، ونافعين لها عن طريق المعارف التى تعلموها » ، وقد اشتهر اليابانى بأنه يضحى عند الخطر فى سبيل دولته . بل لقد حدث مثل هذا فى الحرب العالمية الثانية فإن مئات من اليابانيين انتحروا بدلا من أن يقعوا فى الأسر

---

(١) يطلق على هيجل لقب The Apostle of State Absolutism

(٢) ص ٤ ، ٥ من كتاب Education Its Data & First Principles byPercy Nunn

(٣) ص ٤ من كتاب On Education by Bertrand Russell

أو فى يد العدو فينلم ويمتهن كرامتهم الوطنية القومية .

وكان النظام النازى — على ما به من كفاية فى العلم والإنتاج وقدرة عملية — يفرض سلطة الدولة على الأفراد ، فيضحى بهم فى سبيل إسعادها . ولم يكن يحسب للفرد حساباً ما ، إذا ما كانت هناك أدنى شبهة فى تعارض مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة . وكانت التربية النازية تصوغ عقول الشباب وعواطفهم فى قوالب خاصة . ومما سبق نستطيع القول : إن الدولة متى تحكمت فى نظم التعليم وجعلت أهدافه محصورة فى تمجيدها ، ونظرت للفرد باعتباره وسيلة لا غاية ، أصبح الفرد ضحية هذه الأهداف .

أما أنصار الأهداف الفردية فمنهم كانت Kant الفيلسوف الألمانى الذى يقول : « إن وظيفة الحكومة هى معاونة الفرد على النمو ، لا أن تستذله وتستعبده وتستغله . واحترام كل فرد واجب باعتباره غاية مطلقة فى حد ذاته . وإنها لجريمة تقترف ضد الإنسانية أن تتخذ من الفرد وسيلة لغرض ما كائناً ما كان » وكان يرى أن نمو الفرد وتميزه فى استكمال شخصيته من العوامل الدافعة إلى التنافس والطموح والإنتاج . وهذا التنافس هو السبب فى اطراد التقدم . وكان « نيتشه » Nietzche الفيلسوف الألمانى يؤمن بالإنسان كهدف نهائى للتربية ويقول : « إن غاية الإنسانية هى الإنسان الأعلى ، لا الجنس البشرى بأسره . وآخر ما ينبغى للمفكرين أن يهتموا له هو تحسين الإنسانية وإصلاحها . فلا صلاح للإنسانية بل ليس للإنسانية وجود على الإطلاق . وكل ما يوجد هو مجموعة من الأفراد . والمجتمع أداة للزيادة من قوة الفرد وشخصيته ، وليس غاية فى ذاته ، لأننا إذا قلنا إن واجب الأفراد هو التفانى فى خدمة المجتمع فلأى شىء خلق المجتمع ؟ وعنده أن الفرد هو الغرض الأسمى فى الحياة وأن نموه وتقوية مواهبه هما المقصودان أولا وبالذات . والمجتمع إنما يقوى وينمو تبعاً للفرد . وعلى هذا تجب العناية بالفرد لفرديته ، والعناية بقواه حتى يصل إلى أقصى ما يمكن من الكمال . ومن الدعاة لمذهب الفردية « جان جاك روسو » الذى جعل الطفل مركز عنايته ورعايته ، ووجه كل اهتمام المربى إلى تنمية ما فى هذا الطفل من قوى ومواهب . وقد اختار العوامل الطبيعية التى تحيط بالطفل لتنمى ما عنده من قوة . وهدفه فى التربية . فى مرحلة الطفولة الأولى ، « هو إعداد الطفل ليصير قادراً على ضبط حريته وعلى استعمال قوته فى التعليم ، وتكوين عاداته الطبيعية ، ليصير قادراً على ضبط نفسه عندما يقوم بعمل من الأعمال التى يأتيها بحرية

من إرادته » . ومن هذا يتضح لنا أن الفردية التى يرمى إليها روسو هى التى تسمح لقوى الطفل واستعداده بالنمو الطبيعى من غير كبت أو تعطيل . والحقيقة كما قلنا هى « أن التعصب لمذهب الفردية — كالتعصب للمذهب الاجتماعى — كلاهما نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية السائدة فى العصر الذى يعيش فيه المربى والمصلح والفيلسوف » فإذا نظرنا إلى رأى « روسو » وجدنا أنه نتيجة لما وصل إليه الفرد فى عهده من إهمال وإلى استبداد الملوك وتحكمهم فى الرعية ، وإلى سلطان الكنيسة الجاهلة التى كانت تدعى لنفسها حق إنقاذ الناس وتطهيرهم من آثامهم التى ولدوا بها . وبذلك كانت فردية الإنسان فى عهده مقيدة تقييداً أعمى بسلطة الكنيسة والحكومة ، وكانت التربية مقصورة على طبقة من الناس هم الأرستقراط ، وأهمل الآخرون من سائر أفراد الشعب . فهذه الظروف السياسية والدينية هى التى جعلت روسو ينادى بحق الفرد فى حرية التربية . ويجعل هدف التربية تنمية ما عند الفرد من قوى طبيعية . ويمكن أن نلتمس الظروف السياسية والاجتماعية التى أدت إلى جعل أهداف التربية « خدمة الجماعة لا تنمية الفرد » فى كل أمة عنيت بهذا المذهب . وقد تناول السير برسى نن « مناقشة هذين المذهبين . وهو يرى أن فرداً لا يمكنه أن يستكمل فرديته الإنسانية إلا إذا عاش فى مجتمع ، وأن خيراً لا يمكن أن يوجد فى لعالم البشرى إلا عن طريق نشاط الفرد الحر رجلا كان أو امرأة ، وأن التربية يجب أن تتكيف بحيث تتناسب مع هذه الحقيقة ، وليس معنى هذا إنكار سلطة المجتمع على الفرد ومسئوليته نحو المجتمع ؛ كلا ، فالفرد لا يمكنه أن يعيش وينمو قيمة منعزلا عن طبيعته ، وهى طبيعة اجتماعية وفردية معاً . كما أننا لا نريد أن ننكر التقاليد الاجتماعية ونظم المجتمع وأثر الدين فى حياة الفرد فنتجرد به عنها جميعاً ونهملها ، ولكننا ننكر أن يكون هناك هدف أعلى للتربية — مهما كان مثالياً — يضحى من أجله بالفرد . فكما أن الفرد لا يمكن أن يستكمل نمو فرديته إلا بحياته مع غيره ، فهو عضو فى جماعة لا يستغنى فى نموه عنها ولا عن أهدافها ، كذلك يجب أن نترك لقواه ومواهبه أن تنمو النمو الكامل حتى يتخذ مكانه فى هذه الجماعة . وبعبارة أخرى

All we[1] demand is that Individuality shall have free scope within the common life to grow in its own way, and that it shall not be warped from its ideal bent by force.

(١) Modern Educational Theories, by Bode.

فالتربية الصحيحة إذن هى تلك التى تجمع بين الهدفين الفردى والجمعى وهى التى تنمى الفرد حتى يقوى من أهداف الجماعة الصالحة ويعمل على تحقيقها . وكما يقال : إن الحذاء يستعمل لحماية القدمين لا ليمنعهما من النمو ، كذلك يجب أن تكون التربية . ولقد وفى (جون ديوى) هذا الموضوع حقه فى كتابه "Education to day" فهو يعتقد أن التربية الجدية الحقة هى نتيجة إثارة قوى الطفل ، عن طريق مطالب الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها . وأن لعملية التربية ناحيتين : ناحية نفسية تتصل بالفرد ، وناحية اجتماعية تتصل بالمجتمع ، وليست إحداهما تابعة للأخرى أو خاضعة لها أو مهملة بالنسبة إليها . والناحية النفسية وهى الأساس ، وغرائز الطفل وقواه تعطى المادة الضرورية للتربية . وإذا لم تعتمد التربية على فهم لتكوين الطفل النفسى ولنشاطه فإنها تكون تعسفية لا ضابط لها . وينتج عنها تفكك أو كبت لطبيعته . ومعرفة الظروف الاجتماعية لازمة لتفسير قوى الطفل ، وجعلها تعبر عن نفسها فى الحياة العملية . فلكى نعرف معنى قوة من القوى يجب أن نمكنها من أداء وظيفتها . ولا يتأتى هذا إلا إذا اعتبرنا الفرد عضواً عاملا فى الحياة الاجتماعية ومكناه من استخدام جميع قواه ، وأطلقنا له الحرية . فتربيته إذن فردية حيث هو فرد وجمعية إذا نظرنا إليه فى ضوء المجتمع .

ونحن — باعتبارنا أفراداً أعضاء ضروريون فى بناء الجماعة البشرية ضرورة اليد والعين والقلب للجسم الإنسانى . فكل أفراد المجتمع ، وكل نظمه وتقاليده قوية الارتباط بعضها ببعض ويؤثر أحدها فى الآخر . فالفرد يؤثر فى الجماعة والجماعة تؤثر فى الفرد . وليس فى استطاعة فرد واحد أن ينتج كل ما نحتاج إليه من الضروريات فهو إذاً بعمله الذى يقوم به يخدم كل أفراد المجتمع ويكمل عمل غيره . وهو بدوره يستفيد من عمل غيره ويعتمد عليه . فكل تقدم ورقى يصيب الأفراد عن طريق التربية يكون له أثره فى تقدم المجتمع ورقيه .

ومما تقدم نستطيع القول بأن « التربية يجب أن تنمى الفرد وتهيئه بصورة تجعل مصالحه تنسجم وتتفق مع مصلحة الجماعة ، وتجعل الجماعة تعنى بصالح الفرد وتقدم له خير ما أنتجت الحضارة ، حتى يصبح عضواً مليئا بالنشاط والقوة ، غنياً بتجارب المجتمع الذى يعيش (١) فيه . »

فالتربية السليمة يجب أن تكون فردية اجتماعية معاً .

---

(١) ص ٧٤ كتاب Education for the Needs of Life, by Erving Edgar Miller.

مراجع الباب الثانى

١ — فى التربية تأليف برتراند رسل وترجمة أحمد عبد السلام الكردانى ومحمد أحمد الغمراوى .

٢ — قصة الفلسفة الحديثة لأحمد أمين وزكى نجيب محمود .

٣ — التربية وأصول التدريب للأستاذ أمين مرسى قنديل .

4. Education for Changing Civilization by W.H. Kilpatrik.
5. History of Education, by Monroe.
6. Education for Citizenship, issued by The Association in Citizenship.
7. Education Today, by John Dewey.
8. Le Sauvage de L'Aveyron, par Itard, translated by George and Muriel Humphrey.
9. Education, its Data & First Principles, by Percy Nunn.
10. Education, by R.P. Campagnac.
11. Modern Educational Theories, by Boyd Bode.
12. Education for the Needs of Life, by Erving Edgar Miller.
13. The Teacher's Encyclopaedia, by A.P. Laurie.

مراجع خاصة بأغراض التربية وتحليلها

1. Bagley : The Education Process : Chap. III.
2. Miller : Education for the Needs of Life : Chap. II.
3. Thorndike : Education : Chap. I.
4. Henderson : Text Book in the Principles of Ed. : Chap I.
5. Whitehead : The Aims of Ed. : Chap. I.
6. Nunn : Ed., its Data and First Principles.
7. Ruediger : The Principles of Ed.: Chap. III.
8. Welton : What do we mean by Ed.: Chap. III.
9. Fraisier : Introduction to Ed.
10. Strayer : A Brief Course in the Teaching Process. : Chap. I.
11. Butler : The Meaning of Ed.: Chap. I.